كتاب بأوراق ممزقة

لم أقرأ كتاباً منذ فترة طويلة بسبب تعب بصري خاصة عيني اليمنى التي باتت تنغلق وتنفتح بإرادتها (أو الأصح بإرادة العصب)، ومع ذلك فلا فائدة من انغلاقها وانفتاحها طالما قد بدأت تفقد حساسيتها في الرؤية مما جعلني أهملها نهائياً وأعتمد اعتماداً كلياً على حسنة العين اليسرى. من هنا تركت الكتب ومتعة القراءة منذ وقت بعيد وبدأت أبتعد عن المكتبات ومعارض الكتب حتى لا تعاودني دودة النهش التي تدفعني لشراء كتاب وبالتالي قراءته، مما يعنيه التنبؤ بفقدان العين الأخرى.

ولكن المصادفات المعدودة في حياتنا دائماً ما تواجهنا دون حساب.

كنت قبل أيام في محطة القطار الرئيسية، وسط مدريد، جالساً على مسطبة خشبية في صالة انتظار المسافرين متأملاً الوجوه وتضييعاً للوقت حتى موعد القطار القادم الذي لن يصل قبل ساعة واحدة. كانت تصلني من خلفي موسيقى آلة تشيلو مضخمة، معزوفة لشوبان متأنية ومؤثرة بإيقاعها الذي يشبه مسح الكتف بأصابع خشنة لوقت لا نهائي وبرقة عصية على الوصف. التفت لأرى مصدرها، ذلك أنها ذكرتني بأول مرة سمعت فيه هذه المعزوفة. كان ذلك في شتاء شباطي قارس في بغداد (لازمة قصصية تقليدية لا بد منها ها هنا)، تاركاً القائد يكرر واحداً من خطاباته الطويلة في التلفزيون، فصعدت إلى الطابق العلوي وشرعت بالقراءة منطرحاً على كرسي خشبي، حينذاك وصلتني أنغام شوبان من جهة لم

أدركها. فتحت الشباك وتنصت طويلاً لمعرفة جهة انبعاث الموسيقى بلا طائل. ولأن العزف كان يصلني بشكل أوضح بإبقاء النافذة مفتوحة، فتركتها مشرعة متحملاً البرد والمزنه الخفيفة التي تغسل الوجه مع حركة الريح. قربت كرسياً من النافذة وأغمضت عيني، فاحتلت موسيقى التشيلو فضاء الغرفة.

قد تقول إنها بداية سيئة لحكاية قصيرة، تتحدث فيها عن فقد بصر ومن ثم انجذابك للبحث عن مصدر موسيقى شوبان وتذكرك وسط هذه المعمعة أحد شباطات بغداد (ولماذا على بغداد أن تحضر دائماً متضمخة برعشة شتوية وذكرى مدهشة؟) بما لا يتوافق وشروط الحكاية الواقعية التي تتشبث كامرأة وفية بعروة النص المتماسك من أوله لآخره دون زيادة حرف واحد.

أقول لك، إنني في الواقع لم يكن بإمكاني الحديث عن (كتاب بأوراق ممزقة) ولا عن بسطة كتب قديمة لو لم أكن في محطة قطار واستمع فجأة لموسيقى شوبان، ثم لولا بؤس المواصلات ووصولها المتأخر لما كان لي وقت الاقتراب من صاحب الكتب القديمة وتمسيد يدي على كتاب بعينه. كتاب واحد لا غير.

في تلك اللحظة من اندماجي مع الموسيقى أو الأصح مع ذكرى الموسيقى في لحظة إغماض عين سليمة لأن الأخرى منغلقة بإرادتها... آنذاك فحسب انتبهت لبسطة كتب قديمة وسط محطة القطار، ما أن التفت من جهة كتفي الأيسر.

على ما أتذكر لم أتحرك بإرادتي، فقد كنت مصمماً على عدم الاقتراب من حيز يضم كتباً، ولكن بما يشبه عملية نهش وغليان متصاعد اجتاحني من باطن قدمي حتى صعد إلى الرأس وحركني من مسطبة الخشب وقادني كدليل أعمى مثل حالي وجاء بي قرب رجل يأكل سندويشة لحم بارد ويكرع من علبة كوكا كولا غير مهتم بمن يقترب أو من يمر بالقرب من بسطة كتبه. توقفت أمام البسطة وكأنني

مبتدئ لا يعرف كيفية تصفح كتاب ولا الفرق بين مجلد وآخر، ومن ثم لم أجرؤ على مس أي كتاب.

عند ذلك وبما يشبه حركة مخرج سينمائي أشارت لصاحب البسطة أن يتصرف بسرعة ويدخل الكادر قبل أن أغادر وأعود لمكان انتظاري من جديد، فكان أن تحرك البائع تاركاً سندويشته وعلبة الكوكاكولا على كرسيه، حياني بابتسامة مقصودة وسألني أن كنت أبحث عن كتاب بعينه.

– الحقيقة إنني لا أعرف عما أبحث؟

– هذا أنت إذاً . قال البائع . أخيراً يأتي من يعترف بجهله، لا تقلق، فالبدايات محيرة دائماً، وليس عليك سوى تحريك إصبع الرغبة فتشير لأي واحد منها، قد يكون هو كتابك الذي تبغي فيسرك أو تفشل فلا ضرر لأنك ستعللها عند ذلك بغباء الكاتب وعدم نضجه.

ثم صمت متأملاً رد فعلي، كأنه يراجع جملته التي من الواضح أنه يحفظها عن ظهر قلب ويرددها بين حين وآخر. ولأنني كنت في حيرة أكبر بعد سماع كلماته، فكان أن بادرني بشرح خبراته مع الكتب، ثم أخبرني أنه في الواقع لم يقرأ أي كتاب بحياته، فعمله يقتصر على البيع والشراء، الشراء بثمن بخس ومحاولة بيعه بثمن أعلى، ومصدر رزقه يجعل منه تاجراً جريئاً بعرض بضاعته. وقبل أن أعاود فكرة الهروب من إمام البسطة مجدداً، وكأنه قد قرأ أفكاري، فبدأ بعرض بضاعته، وصف الكتب ومؤلفيها وعم تتحدث، بدءاً بحجوم الكتب وأوزانها، نوعية ورقها ورائحتها التي قد تعود لسنة أو لسنين بلا عد. ضحكت في سري بسبب من خلطته الغريبة بالحديث عن الكتب بمزيج متماسك من الحقيقة والزيف، بخيال منطلق وتشبيهات لا علاقة لها بالكتب أساساً، وكأنه كان يلتذ بقضم سندويشة، محاولاً وصف ما بداخل قطعتي الخبز من خضرة ولحم وطعم الخردل والزيت والملوحة.

أخيراً ابتسمت، لأنه بأوصافه المدهشة، كان قد أرجعني لشراهتي بمعرفة الكتب التي وصفها لي، اكتشفت إن أغلبها قد قرأته سابقاً، فلعنت الذاكرة التي ما أن ننقر قشرتها حتى تفضحنا بمعلوماتها المخزونة.

قلت له لكي أتهرب من الشراء: أغلب ما وصفته لي وما موجود في البسطة قرأته سابقاً، إذا كان لديك كتب أخرى يمكنني رؤيتها، فلن أزعجك بتساؤلاتي بعد ذلك.

لم يمهلني حتى رأيته يمسك بكتاب قديم، أخرجه من كيس نايلون جنب كيس السندويشات. غلاف الكتاب شبيه بورق أسمنت، ممسوح العنوان لكثرة الأيدي التي تداولته.

قال لي: هذا كتاب لا بد أنك لم تقرأه من قبل، بل من المستحيل أنك قرأته، وصلني هكذا، ولا أعتقد بوجود نسخة أخرى منه، لأنني اشتريته من مؤلف الكتاب نفسه بعد أن باع مكتبته بالكامل لفقدانه بصره في أواخر أيامه. يبدو أنه مقصور عليك. هاك! ثم وضعه بين يدي بما يشبه تسليم مفاتيح خزانة سرية.

كان الكتاب ممزقاً بالكامل، ابتداء من حواشيه، غلافه مزين بتخطيط بالحبر الصيني لرجل هائم بأحلامه كأنه على وشك الطيران في أية لحظة. عنوان الكتاب طويل، ويعلن محتواه بلا أدنى شك:

ذكريات الأيام الطويلة المجحفة لحياة رجل ضاقت عليه مدريد فهرب إلى فضاء آخر بلا سابق معرفة لمؤلفه نوداس إي لودبا. عدت للغلاف الأخير بحثاً عن معلومات عن الكاتب ولم أعثر على شيء من ذلك سوى جملة مبتورة ومشوهة بتوقيع الناشر، بالكاد استطعت قراءتها إذ تقول: ".. وهي لمؤلفها (...) الذي حاول رسم حياة طويلة كأنه لا يعنيه منها سوى ردود أفعالنا، لا الوقائع الحقيقية للمدينة ولا ناسها (... ... .). كشف لا مثيل له عن نقيصة الروح، مذكرات يضعها كاتبها أمام القارئ بتواضع فاضح".

الحقيقة أن التعبير الأسباني لـ (تواضع فاضح) قد يعني من جملة ما يعني (استغفال مكشوف . غفلة عارية، مخترقة، نازفة. الخ). أما (نقيصة الروح) فلم أجد لها سوى هذه الترجمة، لأنها تعبير عصي على الترجمة لدلالاته التصوفية التي تحتاج هنا لكتيب صغير وإحالات متعددة لمصادرها.

حاولت أن أدرك مغزى رد فعل بائع بسطة الكتب وهو يمدني بهذا الكتاب، لكنني وجدته يعود لقضم سندويشته وكأن الأمر لم يعد يعنيه، بينما كانت عيناه تسبحان ببحر من الامتنان والتلذذ، إن لم أقل التحرر من تركة ثقيلة.

قلبت الغلاف لتصفح محتوى أوراقه فوجدتها ممزقة هي الأخرى تقريباً، بل تم قص ما يقرب من ثلث الكتاب، حافظ وحسب على عشر صفحات من القطع الصغير متآكلة الحواف ومشوهة الكلمات، لا تقرأ إلا بصعوبة تامة، وهي الصفحات الأخيرة منها، وترقيمها ينتهي بالرقم 120 دون فهرست يختم الكتاب، أو على ما يبدو أن الفهرست جاء في الصفحات الأولى المفقودة من الكتاب. على امتداد الصفحات العشر، بعضها ملتصق ببعض بسبب رطوبة التخزين أو سقوط سائل صمغي عليها أو من أثر أطعمة سكرية، فكرت بالعسل أو المربى وهو ما حدث معي في ظروف أخرى. على أطراف الصفحات التي استطعت فتحها هناك ملاحظات بقلم الرصاص، شخبطات، توضيحات، هوامش، تساؤلات واستفسارات أغلبها ليس بذي أهمية، جمل مبتورة للتذكر محصورة بقوسين، رسومات تزيينية، عناوين بحروف غريبة، أبيات شعرية منقولة من دواوين مذيلة بأسماء شعرائها وأخرى تعود لقارئ مثلي أو المؤلف نفسه. علامات استفهام وأسهم إشارة لم أفهم منها شيئاً سوى التأكيد على أن مؤلف الكتاب أجنبي أقام في مدريد لسنين طوال والصفحات عصارة ذكرياته الشخصية.

الصفحتان الأخيرتان، وهما الوحيدتان اللتان من الممكن قراءة ما جاء فيهما، كانتا واضحتين، بل أن نقش حروفها المطبعية كان محفوراً بتأكيد لا مجال لمحوها

أو التلاعب بها، كما أن الصفحتين جاءتا بلا أية ملاحظة أو هامش أو رسم توضيحي. في الصفحة الأولى منها عنوان بحرف كبير وسط الصفحة هو (نقطة الختام) أما ما يليها فيذكر نوداس إي لودبا:

"في يوم من أيامي الطويلة في المدينة، وبدون تخطيط مسبق، دخلت مكتبة لبيع الكتب القديمة. اثناء تجوالي فيها لمدة نصف ساعة، لفت انتباهي كتيب صغير بصفحات لا تتجاوز الـ 120 لمؤلف لم أسمع عنه من قبل ولم أقرأ له، وكتابه عبارة عن ذكريات أيامه المجحفة في مدريد. ولكن الكتاب بنسخته الوحيدة، كان بأوراق جافة صفراء ملتصقة ببعضها البعض مما يصعب فتحها وقراءة محتواها، سوى من صفحتين أخيرتين إحداهما فارغة إلا من جملة (فصل ختام) كعنوان وفي الصفحة المتبقية جاء ما يلي: كنت طوال أقامتي في المدينة قد ظننت أنني قد تركت أرثي الشخصي بثبات لا مجال للشك فيه كشجرة سرو معمرة من تلك التي تحكي عنها الأساطير، وأنني قد صنعت لي تاريخاً ووقائع، أناساً أعرفهم ومعالم أتميز بها، بما يمكنني بها ملء مجلدات كاملة. ولكنني وأنا أصل الصفحة الأخيرة من كتاب مذكراتي الشخصية أكتشف للمرة الأولى (ويا للغفلة!) أننا لا نأخذ من حياتنا. التي نظن بأهميتها وامتلائها. حتى الموت سوى صفحتين صغيرتين بحجم ورقتي كتاب، إحداهما لتوثيق عنوانك والأخرى للاعتذار عن هذا الهذر المتطاول. وهي حصتنا كلها . حصتي بالكامل من هذه الحياة المجحفة . وهي على أية حال تبدو كريمة معي، لأنها ستترك المجال للآخرين لملء الصفحات الفارغة، أو حواشيها، برسوم وتخطيطات ومنقولات وملاحظات وخطط مستقبلية. ربما لشخص آخر سيقدم بعد زمن ليتخذ منها مشروعاً لكتابة قصة لا تتجاوز الصفحتين هي الأخرى، عن كتاب بأوراق ممزقة لكاتب مجهول ظن أنه بذلك الفعل يترك ما يدل عليه أو يشير لمروره العابر".

عبدالهادي سعدون

كاتب عراقي ولد سنة 1968 في بغداد. مقيم في إسبانيا منذ عام 1993.
مختص بالأدب واللغة الإسبانية وترجم عنها أكثر من 20 كتاباً في الشعر والقصة والرواية والنقد.

من بين إصداراته الأدبية:

. ليس سوى ريح ، شعر، 2000.

. انتحالات عائلة قصص، 2002.

. عصفور الفم، شعر،2006.

. الكتابة بالمسمارية، شعر بالإسبانية، 2006.

. دائماً، شعر بالإسبانية، 2010. (جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية للشعر)

. حقول الغريب، شعر بالإسبانية، 2011.

. مذكرات كلب عراقي، رواية، 2012.

. تُرجم العديد من نصوصه ونشر في كتب وأنطولوجيات ومجلات ودوريات مختلفة إلى اللغات التالية: الإسبانية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية، الفارسية، الكردية، التركية، الكتالانية، الغاليثية، الإيطالية، المقدونية، الصربية، الرومانية وغيرها.

ahsadoun@hotmail.com